في لبنان وفي كل مكان
من أجل ألا يموت من الحزن الإنسان
فلنبنِ معاً السلام

في العام ٢٠٠٦ ها نحن ننتفض جميعنا ضد المجازر على المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين
ومنذ الثمانينات، نشهد المجازر المرتكبة ضد الشعب العراقي في حربهم مع إيران أولاً وبعد ذلك خلال حرب الخليج ومنذ العام ٢٠٠٣ بعد اجتياح القوى الأميركية له .

ولم يسلم الصرب ولا الكروات ولا المسلمون من المجازر التي عاثت فساداً في يوغوسلافيا السابقة بينما فقد ملايين الهوتو والتوتسي أرواحهم في الرواندا في العام ١٩٩٤ في ظروف مريعة. وفي مكان أبعد بقليل تركت سنوات عشرون من الحرب شعب الفيتنام منهك القوى يسبح في الدماء. ولا حاجة للتوقف عند هيروشيما التي لا تزال جراحها تنزف حتى اليوم، أو التيبيت الذي اجتاحت الصين أراضيه ولم يبال أحد أبداً. فمنذ ولادة الأرض والحرب تضرب ما تضرب تاركة أثرها الذي لا يزول على البشر والحجر، وتنال كلها شرعيتها باسم الله او الفقر أو الرغبة في السلطة والمال او التمييز العرقي. لكل هذه الأسباب يحارب قسم من البشرية القسم الآخر.

الملاحظة الأولى

لا يمكن لأي مجتمع أن يدعي الإفلات من العنف وهو لا يفلت منه حقاً. من هذه الناحية، أي كان لون البشرة، ما من عرق يفوق الآخر أهمية. فمنذ تواجد الإنسان على سطح الأرض تتملكه في أعماقه بربرية لا يريد التنازل عنها. ونحن، مواطنو الدول التي تنعم "بالسلام" نتهلل لأننا من أولئك الأفضلين الذين وصلوا إلى الحكمة. عسى الله يحمينا من هذا التكابر!!!! فمن منا يستطيع ان يدعي أنه لم يخضع يوماً لإزعاج جيرانه و ضغطهم. من الذي يستطيع أن يدعي أنه لم يكن جشعاً حيال الذين يدعي أنه يحبهم؟ فالعنف الذي نشهده على كافة مستويات مجتمعاتنا " المتحضرة " تبرهن لنا إلى أي حد لا يزال الطريق طويلاً أمامنا. وعلينا أن نتمتع بالصدق الكافي للقول بأننا عندما نتصرف بشكل مسالم مع الآخرين نكون نميل إلى معاقبة أنفسنا. أليس ذلك شبيهاً بالحرب؟

الملاحظة الثانية

عندما اجتاح الصينيون التيبيت لم تهدد أي من القوى العظمى الصين بالرد ولم يتوقف العالم عن دورانه. ونعرف تماماً أن المجازر الحاصلة في رواندا كان بالإمكان تفاديها. وهذا يصل بنا إلى الإدراك ان فضائل الشجاعة التي تتمتع بها حكومة ما كما وخيارها بإنقاذ شعب إنما هو ناتج بشكل أساسي عن مصالح متعددة لا علاقة لها البتة بالقيم البشرية أو الروحية.

الملاحظة الثالثة.

يوم الجمعة الواقع فيه ١٧آب ٢٠٠٦، لقد شاهدنا على محطة "أرتي" وثائقياً عن إسكندر المقدوني. من المثير للاهتمام أن نرى إلى أي حد يتم فيه ذكر المفكر الاستراتيجي الكبير ذاك الملقب ب"رجل الله" كمثال. وعندما نجول عبر الانترنيت نصل إلى الخلاصات نفسها بشأنه. أما الجنرالات، ومنهم الامبراطور نابوليون، فكانوا من أكبر المعجبين به ودرسوا وسائله القتالية من أجل أن ينجحوا في اجتياحاتهم الخاصة. وطبعاً تأتي كافة المواقع على ذكر هذا المحارب اليافع وقساوته، هو الذي كان يتعطش للثأر والمجد. فحتى اليوم، إن تصرفه- الذي يوصف بالبطولي- كما وفتحه امبراطورية ووفاته عن عمر ثلاثة وثلاثين في قمة المجد وبلا هزيمة، كلها عناصر تدعو إلى الإعجاب . وها نحن في العام ٢٠٠٦، لا نزال نؤمن بشريعة الأقوى ونعمل بها.
وعلى الرغم من ان الأمر قد يبدو في غير مكانه، إلا أنني أرى تشابهاً كبيراً بين ما كان يجري في أيام الجاهلية واليوم، في العام ٢٠٠٦، في لبنان وفي مناطق أخرى من العالم.

الحرب في لبنان

منذ حربي ١٩٣٩/ ١٩٤٥ وعالمنا الغربي يعيش سلاماً ظاهرياً. يمكننا إذاً أن نقنع نفسنا بأن الحكمة تسوق ساستنا المنتخبين. كما ويمكننا أن نكتفي بالظن أن الألم والتجارب الماضية تكفي وسوف تكفي من أجل الا نرى من جديد على أرضنا أي شبح من أشباح الحرب.
لكن إذا ما تساءلنا عن مصدر الحرب، لا نخطئنّ الظن أبداً: فمنذ القدم حتى اليوم لا نرى حرباً تولد عرضاً بل أنها وليدة جشع البشر. هل من سبب لأن يتوقف ذلك؟ إذا ما عدنا إلى أحداث الماضي والحاضر لوجدنا أن الحكومات "كافة"، بما فها الغربية تتكلم بلغتين:من جهة يقولون "حتى يبقى مواطنونا مطمئنين، نحن نعمل من أجل السلام". وعندما تجر بعض الأحداث في مكان ما أبعد من مناطقنا بقليل نسمعهم يرددون: "نحن مضطرون لأن نجتاح هذا البلد لأنه يشكل خطراً على البشرية". بينما تجيب الحكومات الأخرى :" إن العودة إلى السلام ضرورية جداً". وخلف ذلك بقليل وحسب، نكتفي بصمت دبلوماسي يخبئ الترتيبات الاستراتيجية والاقتصادية التي ترتكز على ابتزاز مقبول. وعلى هذا النحو، ننتقل من نظام سياسي إلى آخر، فينتابنا، نحن سكان هذا العالم، شعور جامح بالخداع المستديم.
إن نشوء حزب الله ـ والاجتياح الاسرائلي إنما هما ناتجين عن الأكذوبة نفسها. فعلى الرغم من الخطابات الرنانة، نحن نعرف تماماً أن القادة في عالمنا هذا إنما يحكمون من أجل تقاسم قالب الحلوى الذي لا يزال شهياً على الرغم من دمويته. فالمصالح الاستراتجية التي ترتكز على النفط، تلك الحاجة الوهمية لامتلاك السلطة، والشعور بأننا وحدنا نلج كلمة الله هما المحرضان الأساسيان على الحرب. أكان ذلك في لبنان أو في أي مكان آخر، تبقى العملية هي هي إذا لم نضع لها حداً نهائياً وجذرياً.

ما العمل إذاً من أجل وضع حد لهذا الدمار؟ أوهم أن نظن الأمر ممكناً؟

تتمثل إحدى الإمكانيات في أن نستثير الوعي لدى الحكومات. ونحن نعرف نتيجة ذلك. طوال أربع سنوات، خلال الحرب على يوغوسلافيا السابقة، لم أنفك أعمل على ذلك. وكانت تردنا الأجوبة كل وفقاً لشعور بالذنب وبموجب سياسته الخارجية. ففي كل حال، لا شيء يستطيع أن يمنعنا من أن نعبر عن أفكارنا أو رغباتنا. إلا أن النتائج ستبقى على حالها: أمام مصالح الحكومات

لا يرتفع صوت الحب ويموت صوت الحكمة.
فمن أجل أن نضع حداً لهذه المهزلة، علينا بحل واحد: على الرجال والنساء والأطفال والمراهقين الذين يعيشون على هذه القارة بأقطابها الأربع أن يستعملوا ذكاءهم ومعرفتهم السالفة أو الفكرية من أجل أن يبنوا حياتهم ومستقبلهم والمجتمع الذي يريدونه لنفسهم. فهم قادرون على ذلك، وقدرتهم تفوق التصوّر، قوة يكتنزونها في داخلهم قادرة على أن تغيّر هذا العالم ومستقبل الأجيال المقبلة.
وعلى الإنسان أن نتوقف عن التفكير بأن مجموعة من الناس، حكومة ما، هي التي سترعى مصالحه وهي قادرة على ذلك. عليه أن يكون مدركاً تماماً لحقيقة الطبيعة البشرية التي تغذي كل إنسان، أياً كان لونه، وأياً كان مستواه الثقافي، وأياً كانت إيدولوجيته. كلنا نتمتع بضمير * محب وحكيم. إلا أننا كلنا تحت رحمة العقل الباطني فينا ** ولذلك، نكون حكاماً ومسؤولين ومقررين عرضة للخطأ الدائم لأن خياراتنا تتأثر بالطموح واللامبالاة أو الخضوع والسلبية والشعور بانعدام العدالة والذنب والخوف.

إدراكنا الأول

يقضي هذا الإدراك بالقبول بالفكرة بأننا معاً قادرون على اجتراح المعجزات. فلنكف أولاً عن الانقسام ولنفكر في إعادة تشكيل مجتمعنا من دون أن ننتظر صدور قوانين جديدة تهدف إلى حمايته. فلننظر إلى مصالحنا البعيدة المدى ولندرك أن السلام يجب أن يكون فردياً قبل أن يكون جماعياً. فالسلام يتطلب العزم والكرم والحرية الداخلية.

نحن بانتظار مرحلتين حاسمتن

تتطلب الأولى منا إعادة نظر في قيمنا وفي الاتفاقيات العديمة التي ترعى حياتنا. ونحن قادرون على ذلك في كل الدول.
أما الثانية فتقودنا إلى أن نهتم وبشكل تام بتعليم أولادنا . إنهم بحاجة لأن يعجبوا بشجاعتنا . إن مجتمعنا الغربي الرأسمالي يحثنا على البحث لدى أصحاب الاختصاص عن تشخيصات لا تنفك تزيد من شكوكنا وجبننا ورفضنا بأن نصدق أننا قادرون على أن نكون الدليل الحقيقي للأجيال المقبلة. إن الأمراض الجديدة التي يعاني منها أطفالنا والتي تخترعها مجتمعاتنا إنما هي الدليل على استرخائنا وذنبنا. فمنذ سنوات عديدة نرى هذه العوارض، أو المشاكل العضوية كما تسمى، وهي التي أعلّمها في حصصي وألقّنها في مقابلاتي الخاصة على أنها تصرفات عاطفية لأشخاص معينين. أما تقنيات العمل المستعملة بمثابرة كبيرة وإرادة عالية فتظهر أننا لسنا بمرضى.

في دول أخرى، تدفع المشاكل كسوء التغذية وانعدام العدالة الاجتماعية والقمع والنزاعات بالشعوب التي تزداد يفعاً ويأساً إلى البحث عن سبب للعيش أو سبب للموت في إيديولوجيا رفدية ودينية يطلقها ناطقون باسمهم غالباً ما تكون لهم مآربهم الخاصة. ومع ذلك، فإن هذه الشعوب هي الأخرى، تستطيع أن تتكلم عن القيم نفسها التي ندعيها والشجاعة نفسها والقوة القرارية نفسها.

ما هي الحلول؟

قوتنا هي أن ما من حكومة تستطيع أن تحكم طريقة تربيتنا لأولادنا.
ففي كافة الدول، من الشرق إلى الغرب، عسانا ندرك أننا معاً، وخارج الهيكليات المدرسية، نستطيع أن نبني سياسة تربوية ترتكز أولاً على الوعي الفلسفي للقيم الأساسية التي تسمح للراشد والولد بأن ينمي الكرامة والفرح في داخله. في كل بلد وفي كل بلدة

* الضمير: الكيان الإلهي، الصوت الداخل الذ قودنا إلى الحق

** العقل الباطني: البرمجة العاطفية التي تجعلنا نعاني

يجب إيجاد قناة محددة يهتم بها الأهل أو الراشدون، فيتحولون هم نفسهم إلى منشطين . في سويسرا عدد لا بأس به من هذه القنوات وهي لا تطلب إلا أن تزداد.

إن هذا المفهوم الجديد بشأن أهمية تأثير أعمالنا وخياراتنا الشخصية على مجتمع الغد سيعيد لنا حس المسؤولية وسيفرج عن فرحنا باكتشافه. وحس المسؤولية هذا سوف يعيد لنا حريتنا وقدرتنا على تعليم أولادنا الحياة، والقدرة على أن نبث فيهم قوة التحول إلى كائنات راشدة ومدركة للسلطة التي ستقودهم إلى إنشاء عالم سلام حقيقي. وأخيراً سوف يعطيهم القدرة على تعرف الوسائل المختلفة لمعرفة نفسهم والعمل من أجل الا يمنعهم عقلهم الباطني من أن يحبوا ويتمتعوا بالحب.

في النهاية، من الواضح أن سياسة التربية هذه ستتوجه أيضاً وأولاً إلى الراشدين المتحمسين والقادرين على فهمها.

فحري بنا اليوم الأ نرغب بأن تقودنا مؤسساتنا أو قادتنا الروحيين على هواهم، وألا أن يقودوا أولادنا غداً. ففي الشرق كما في الغرب، يمكن للإنسان أن يكون إنساناً وأن يسيطر وحده على مستقبله. إن كلاً منا يمثل "واحدة" من مكونات الجماعة. فإذا ما توجهنا نحو الهدف نفسه، وإذا ما تصرفنا بشكل مشابه، وإذا ما بنينا القيم نفسها، سوف نصل كلنا، سكان الأرض، إلى تضامن وقوة في المحبة لا يمكن لأي حكومة في العالم أن تزعزعها أو تقوض دعائمها.

إذا، مع الوقت ومع الأجيال المقبلة، سيختفي شبح الرغبة بالفتح لدى الإنسان، ولدى حكام العالم أيضاً. ربما لن نرى ذلك نحن الراشدون، إلا أن إرث جيلنا سيكون تلك المغامرة المحتملة : مغامرة الثورة الأولى اللاعنفية لأنها ترتكز بشكل خاص على تعديلات نظامنا الفكري والانجازات الملموسة التي هي بمتناول كافة المجتمعات.

سويسرا، جنيف، ٢١ آب (أغسطس) ٢٠٠٦

مارتين ليبرتينو

* الضمير: الكيان الإلهي، الصوت الداخل الذ قودنا إلى الحق

** العقل الباطني: البرمجة العاطفية التي تجعلنا نعاني